فصاروا يعدونه مثلنا من ضروراته . وتبدأوا يشعرون بأن تعدد الزوجات من ضرورات الاجتماع أيضا ووجد من نسائهم داعيات اليه لاسيما في بلاد الانكليز حيث يزيد عدد النساء على الرجال ضعفين فيكثر الزنا ويكثر عدد النساء اللواتي لا عائل لهن كما بيناه في مقالة مستقلة بالنقول والشواهد عن جرائد انكلترا (راجع ٤٨١ م ٤) ولنا ان نعتبر أن تأييد سير العمران وحوادث الزمان لاحكام الاجتماع في الاسلام من جملة الدلائل والبراهين على صحة أصله وكونه وحيا من الله تعالى لا وضعاً من حكماء البشر كما يتوهم الملحدون . وقد طال بنا الكلام والمسألة تحتاج زيادة في البسط نرجئه الى فرصة أخرى

باب رد الشبهات عن الاسلام

(احياء الاسلام لمدينة اليونان والرومان والمصريين)

ذكرنا في آخر الجزء الماضي ان المقتطف الاغر قرظ كتاب (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) وانتقد في تقريظه التمثيل الذي أوردناه في مقدمة الكتاب مورداً انتقاده في صورة سؤال يستحب أن يسمع جوابه ان كان عندنا جواب ، وها نحن أولاء نوافيه بما يحب بعد ايراد السؤال أو الانتقاد . قال الكاتب الفاضل بعد ذكر اسم الكتاب ونسبته الي من نسب اليه : « وهو مقالات نشرت في مجلة المنار الإسلامي ثم جمعت على حدة في كتاب . قال حضرة الاستاذ الفاضل السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار في تمهيد وضعه لها ما نصه :

« ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها فأحيا الارض بعد

موتها ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضاً من خرائب جيرانهم فغيض الماء وما بقي منه تسلل من شقوقات تحتوي . ولم يلبث بعد ما غاض أن فاض منه شيء في مواضع أخرى فانتفع أهلها به وحافظوا عليه ولكن الاكثرين منهم لا يعرفون من أين جاءهم كما ان أكثر أهل الينبوع المنتسبين اليه بالاسم لا يعرفون أن ذلك الماء الذي تفجر من تلك المواضع فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة هو من ماء ينبوعهم وأنهم لو أزالوا عنه تلك الانقاض لفاض ورجع اليهم به خصبهم ونموهم كأحسن ما كان لأنهم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء الاحياء . ذلك مثل المسلمين اليوم مع الامم الغربية المدنية الراقية . أخذ الغربيون من الاسلام كل أصول الإصلاح الذي هم فيه »

(ثم قال الكاتب بعد ما نقل هذه الجملة ما نصه :) « وياحبذا لو يبين لنا حضرة الاستاذ الفاضل من أين أتى الماء الذي أحيا مدنية اليونان والرومان فأنشأوا به الحدائق والجنات والماء الذي أحيا مدنية المصريين الأقدمين فبقيت آثارهم الصناعية الى الآن لم يقو ملوك العرب على محوها مع ما بذلوه في ذلك من العناء وآثارهم الأدبية مرسومة في صفائح الصخور تعلم أسمى الفضائل وأفضل الآداب »

﴿ جواب المنار ﴾

كنا بالأمس أو بالأمس نرد شبهات بعض المتقلبين على موائد الملل والمتهجمين على النظم في الاسلام بغير فهم ، ونحن اليوم نذاكر عالما غزير المادة واسع الاطلاع يناظر أديباً ذكي الفؤاد ؛ دقيق الانتقاد ، الا أن قلمه عثر في هذا الميدان وقد يكبو الجواد ؛

من حسنات المقتطف أنه ينتقد الكتب التي يقرظها ولا يتبع سنن الجرائد في مدح كل ما يهدى اليه من كل وجه وان كان مذموما من وجوه كثيرة . وانتقاد الكتب التي تنشر بين الناس أمر نافع ولكنه وعر المسلك لأن وقت كتاب المجلات والجرائد قصير يضيق عن قراءة كل ما يهدى اليهم من المطبوعات لانتقاده ولأن أصحاب تلك المطبوعات من المؤلفين او الناشرين يألمون من الانتقاد وان كان حقاً ومقنعاً . وبعض الانتقاد يؤلم الجماهير من الناس اذا كانوا على خلاف رأي المنتقد . فالتصدي للانتقاد مع هذه الوعورة في طريقة يعدّ فضيلة توجب الثناء والشكر على من يعرف فوائد الانتقاد في تجلي الحقائق وتحري الصواب وتنقيح العلوم والفنون .

ولقد قلت من قبل قولا في ذلك كشفت به عما في نفسي وهو : سواء عندي من مدح قولي ومن انتقده لأني في حاجة الى معرفة ما يستحسن منه وما يستقبح على سواء بل ربما كنت أحوج الى معرفة موضع النقد ، مني الى معرفة موضع الحمد ، لأن هذا أبعث على إصلاح العمل ، وأهدى الى توقي الزلل ،

أما عثرة المقتطف فهي ظاهرة لأول وهلة في تحميل التمثيل عن موضعه فإنه صريح في كون الكلام في « المسلمين » لزوم مع الأمم الغربية الحية الراقية » لا مع المصريين الأولين ، ولا مع اليونانيين والرومانيين ، وصريح في كون الأمم الحية أخذت من ينبوع الاسلام كل أصول الاصلاح الذي هم فيه . وهذه المسألة المجملة في مقدمة الكتاب مفصلة بعض التفصيل في الكتاب نفسه ولذلك لم يطلب المنتقد بيانها لأنه طلب تحصيل الحاصل

أما مدنية المصريين واليونان والرومان فالناقد يعلم انها قد ماتت قبل

ظهور الاسلام وإن بقي لها آثار تدل عليها ويعلم ان الاسلام أحياها بعد موتها فأنشأ أهله — لا أهلها — بها حدائق العلم والعمل في بغداد ومصر وقرطبة أو في الشرق والغرب والوسط ومن هذه البلاد انتقل العلم والمدنية الى الامم الغربية الحية بلا نزاع

ولم يكن الكلام في ذلك التمثيل في المدنية الصناعية وإنما كان في الاصلاح البشري اي الاصلاح الذي ارتقت به عقول البشر وتهذبت نفوسهم وتوثقت روابطهم الاجتماعية وعرف بعضهم لبعض حق الانسانية فاذا كانت تلك الامم التي سبقت الاسلام بالمدنية الصناعية وهي أهلها أهرامًا لم يبن مثلها المسلمون فالاسلام قد أفاد البشر مالم تفده تلك الصناعة أفادهم ارتقاء في العقول علمهم أن تلك الاهرام وما يشابهها قد بنيت باستعباد البشر وأسر أرواحهم واشباههم وتسخير الملايين منهم لخدمة شهوة ملك من الملوك الظالمين أو لخدمة وساوسه الدينية

علمهم أن تلك المدنية كانت تسحر بها المحصور في طبقة مخصوصة أبصار الأمة وتخيل للناس ما ليس له حقيقة فتستخفهم وتحملهم على الخضوع الاعمى لأولئك الرؤساء الضالين المضلين ، الفاتنين المغرورين

علمهم كيف يحكمون على اليونانيين بفساد التفكير في الخضوع لآلهة لا وجود لها الا في الخيال وتحكم تلك الاوهام في مدنيتهم وحربهم وصناعتهم فهيكل جوبيتير الذي يدهش الناظرين ببديع صناعته هو آية على ان تلك المدنية الصناعية كانت مقترنة بضلال العقل وفساد التفكير في المسائل التي يمتاز بها البشر على النحل والنمل الابيض والسنجبون وهي حشرات أتقنت أعمالا من الصناعة كانت فيها من أساتذة الإنسان كما يقول بعض العلماء

علمهم كيف يحكمون على شرائع تلك الامم وقوانينها بالظلم وهضم حقوق الانسان بما يفضلون شعوبهم على سائر الشعوب فى الحقوق فإنه لم توجد شريعة وضعية ولا سماوية معروفة قبل الاسلام تساوي بين أهلها وبين جميع من يقبل حكمها من المخالفين وان كانوا قوما معادين «ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» وهذه الآية من سورة المائدة التي هي آخر القرآن نزولا ومعناها لا تحملنكم معاداة قوم على ترك معاملتهم بالعدل فان العدل واجب مع الولي والعدو لانه من تقوى الله الخبير بالأعمال والمجازي عليها. والمصريون كانوا يستعملون ظلم غير المصري بل يعبدونه تعبيدا لملكهم كما فعلوا بالاسرائيليين. وكذلك اليونان والرومان وهذا تاريخ اليهود شاهد بأن الرومان قد ظلموا الاسرائيليين ظلما يضاهي ظلم المصريين لهم. فأين هؤلاء وأولئك من معاملة الاسلام لليهود. تقدمت الذكرى في الجزء الماضي بمساواة عمر بين علي بن أبي طالب (وما أدراك من هو) ورجل آحاد اليهود. وعندنا ما هو أعظم من ذلك وأشرف

روى الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي وغيرهم عن زيد بن سعنة وكان من أحبار اليهود أنه ابتاع من النبي صلى الله عليه وسلم تمرا الى أجل وأعطاه الثمن فلما كان قبل الأجل بيومين أو ثلاثة أتاه يطالبه بالتمر (قال): فأخذت بمجامع قميصه ورداءه ونظرت اليه بوجه غليظ ثم قلت ألا تقضيني يا محمد حتى فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل: فقال عمر: أي عدو الله أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما اسمع فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك: ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر الى

عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال : أنا وهو كنا أحوج الى غير هذا منك ياعمر — أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي اذهب به فاقضه وزده عشرين صاعا مكان ما روعته » ففعل ثم أسلم هذا الحبر الجليل وقال بعد ذلك إنه فعل مافعل ليختبر أخلاق النبوة وعلاماتها فلما رآها كملت فيه عليه السلام آمن به

وجملة القول إن الإسلام علم البشر أصول السعادة الحقيقية التي لم تكن معروفة عند المصريين ولا اليونان ولا الرومان وأهمها (١) صقل العقول بصقال التوحيد الخالص وتطهيرها من صدإ الخرافات والأوهام ليكون الفكر مستقلا فيما يعتقد يرفض التقليد ويعتمد على البرهان . و(٢) بيان ان للكون سننا وناميس ثابتة ينبغي ان يهتدي بها الانسان في سيره العلمي والعملي . و (٣) توسيع دائرة الجنسية بجعل شريعته تساوي بين جميع الامم والملل اذا قبلوا حكمها وقد كانت جنسية المصريين مصرية واليونانيين أثينا والرومانيين رومية و(٤) القصد في المعيشة فقد اسرف القوم في الشهوات اسرافا صاروا بها شرا من البهائم

ولو شئت أن اسرد محاسن الاسلام وأعدد مساوي تلك المدنيات القديمة لخرجت من جواب سؤال الى تأليف اسفار كبيرة وقد نشرنا في الجزء الماضي نبذة معربة من كتاب أميل القرن التاسع عشر في انتقاد آداب اليونان والرومان وفيها عبرة لمن اعتبر

فإن قيل ان النصرانية قد سبقت الاسلام الى إخراج اليونان والرومان من ظلمة الوثنية أقول أولا إن النصرانية لم تنتشر في تلك الامتين الا بعد ما دخلتها هي الوثنية ولكنها اقربتهم من التوحيد لانها نقلتهم من عبادة مخلوقات

كثيرة الى عبادة مخلوق واحد على أن فيه معنى من الألوهية مركب من ثلاثة أقانيم . وثانياً ان النصرانية لم تجتمع مع مدنية الأمتين وانما أجهزت عليها حتى محت تلك العلوم قبل أن تبلغ كمالها ، وطمست تلك الاعمال الصناعية وشوهت جمالها ، وما زالت في تدل وانحلال ، حتى جاء الاسلام فانتشلها من براثن الاضمحلال، ذكر المؤرخون أن المسيحية تمكنت في أثينا أثناء القرن الخامس وفي أول القرن السادس قطع يوستنيانوس أجرة المعلمين المعينين في أثينا ومنع تعليم الفلسفة لأن المدارس كانت مضرة بالنصرانية ومن ذلك الوقت أخذت أثينا بالانحطاط

ونختم القول بنتف من التاريخ في مساوئ وخرافات اليونان والرومان الذين يباري المقتطف بهم الاسلام . قال في برهان البيان : « بينما كان الرومانيون محتفلين بعمل موسم تشريف لروح قيصر إذ ظهرت نجمة ذات ذنب طويل ومكثت سبعة أيام فظنت الأمة الرومانية أن روح قيصر صعدت الى السماء وتصورت بهذه الصورة وانتظمت في سلك العالم العلوي »!!

فلولا وجد من الرومانيين من يقول كما قال النبي الامي (عليه الصلاة والسلام) لقومه عند ما كسفت الشمس يوم مات ولده ابراهيم وظنوا أنها كسفت لموته : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته »

وجاء في ذلك التاريخ أيضاً : كان من ثوابت عادات اليونان وأهل آسيا بناء هياكل للملوك بل ولكبار الحكام ليكون ذلك أقوى في الدلالة على الانقياد والعبودية . وأما الرومانيون فكانوا يعبدون اسلافهم في معابدهم الخاصة فقط : ثم ذكر انه من عهد رومولوس الى عهد قيصر لم ينتظم أحد

في سلك الآلهة التي لهما هيا كل ومعابد عامة

ومن ظلمهم ان طيباريوس اتخذ القانون الفاضي بعقوبة كل من يسيء الى الأمة الرومانية آلة للانتقام كما يشتهي . وكانت الامة استمدت ذلك من زمن اغسطوس الذي سلب الامة حق التشريع والحكم في الجنايات فانه اشترى السيادة في عهد طيباريوس التي سلب الامة حق الانتخاب أيضاً لانه كان يعاقب كل من يهم بقول او عمل يشك منه انه ناشئ عن رغبة وكل الامة كانت عبيداً ولا بد للناس من ان يتملقوا ويتذللوا للاشرار الذين يحسبون الناس على ظنونهم وما يبدو منهم ولم يكن القضاة يتوسعون في الحكم على المتهم بأدنى شبهة . وكانوا يعاقبون على أمور لا تخطر في بال أحد من أهل العهد المستبد الذي هو اشبه شيء بالمطالم في اليوم . من ذلك ان طيباريوس أخذ رجلا باع بيته وكان فيه صورة الامبراطور . وان دوميتيانوس حكم بالقتل على امرأة علم أنها رمت فيها بنظرها صورته !! فهل كانت تلك الشريعة معتبرة في اصلاحها التي يتبوع المدنية الحالية التي يستوي فيها الخليفة مع أدنى السوقة من غير المسلمين في الحقوق مع انها كانت في أشد الحاجة اليه ولذلك انتشر نور الاسلام بسرعة البرق

وقال صاحب برهان البيان : ولما كان الرومانيون متعودين على التلاعب بالطبيعة البشرية في أولادهم وأرقائهم كما يعلم ذلك بالوقوف على قوانين الرومانيين المتعلقة بحكم الآباء والامهات على أولادهم كان لا يمكنهم غالبا معرفة ما نسميه إنسانية وهي فضيلة الرفق .... وإذا كانت عادة الملة الجبر والقسوة في الحالة الداخلية الملكية فكيف ينتظر منها الرفق والعدالة الطبيعية . وكثيراً ما يطلع القارئ في تاريخ القياصرة على قتل أناس كثيرين

لقصد مجرد ضبط أموالهم للدولة: — ثم قال — : ومن نظر في مرآة تاريخ الرومانيين رأى فيها صور الاشياء البشرية فيجد في هذا التاريخ كثيراً من الحروب الواقعة والدماء المسفوكة والامم المدمرة والوقائع الجسيمة، والنصرات العظيمة، والتدابير الجمة، والحكمة البالغة، والاحتراس والثبات والشجاعة، ويجد فيه أيضاً تصميم النية على التغلب على كل شيء وأنه حصل كما ينبغي واستمر وانتهى كذلك وأنه لم يترتب عليه الا إسعاد خمسة رجال أو ستة من الأشرار:

نقول: فهل كانت مثل هذه المدنية محتاجة الى ينبوع العدالة الإسلامية لإصلاحها وإحياء النفوس التي أماتها الظلم والجبروت؟ ثم كانت في أشد الحاجة الى هذا الإصلاح ولذلك قبلت الاسلام بسهولة. ونسكت الآن عن الكلام في فساد اخلاق الرومانيين وتهتكهم في الخلاعة والفسق وانغماسهم في الترف واللاذ وفساد أخلاقهم الشخصية فقد أوغلوا في ذلك إيغالا مدهشا يثبت أن أرواحهم ماتت وكانت محتاجة للإحياء. وهنا يخطر في بال القارئ أن النصرانية هي التي سبقت لإصلاح نفوسهم وإحياء مدنيتهم التي أماتها الظلم والفسق ونقول إن النصرانية مهدت بعض التمهيد للإسلام ولكنها لم تكن محيية بل كانت مجهزة على تلك المدنية كما أشرنا الى ذلك في مسألة مدنية اليونان

(تأثير النصرانية في المدنية الرومانية)

جاء في تاريخ القرون المتوسطة ان النصرانية لم تكد تنتشر وتقوى في بلاد اليونان والرومان ومنها بلاد مصر حتى رأى رؤساؤها وجوب هدم الهياكل وكسر التماثيل ومحو الصور اليونانية والرومانية لأنها آثار الوثنية فقاموا بهذا الواجب حتى محوا آثار صناعة البناء والفنون الجميلة او كادوا ولولا

أن بعضهم رأى تحويل بعض الهياكل الى كنائس لما بقي لتلك الامم أثر في الوجود . وقد أصدر تاودسيوس أمراً رسمياً بهدم الهياكل وتكسير الصور سنة ٣٩٠ ميلاد . ثم رأوا أن في علوم تلك الامم خطراً على النصرانية فطفقوا يحرقونها في كل مكان فقد أحرقت مكتبة الاسكندرية بأمر تاودسيوس سنة ٣٩٠ للميلاد وأحرقت مكتبة اوكتوغونه في القسطنطينية سنة ٤٧٦ للميلاد وحملت الحمية الدينية لاون اللوزرياني على تحريق مابقي من الكتب سنة ٧٣٠ . وكان في هيكل ابولون پلاتين بمدينة روميه مكتبة فيها أنفس كتب الآداب من عهد غسطوس فكانت غيرة البابا اغرغوار وتقواه عاملتين على إحراقها وحرمان الناس من تلك الوديعة التي جعلها العالم وارون في حماية إله الشعر وكنفه . (على اعتقادهم)

والامر الذي لا خلاف فيه هو ان انحطاط الامة الرومانية كان مقارناً لانتشار النصرانية فيها . فالوثنيون الرومانيون كانوا يقولون إنها هي السبب في ذلك الانحطاط والنصارى يقولون ان ذلك كان لأسباب سابقة ولكن لماذا أجهزوا على تلك المدنية ولم يصلحوها وينقوها من أوضارها بدلا من محوها وطمس معالمها وماذا أبقى النصارى للعرب مما بقوا لهم إلا نزراً من الكتب أحيوها به

أما تمهيد النصرانية للاسلام الذي أشرنا اليه فهو إضعاف تلك الوثنية واضعاف تلك الحمية الجاهلية وذلك السرف في الترف بالغلو في الزهادة والانقطاع الى العبادة ثم إضعاف الامة بالخلاف في الدين والتنازع بين دولة القياصرة ودولة الرهبان والاساقفة وانتصار هؤلاء وتحكمهم بخرافاتهم في الامة . فالذي مكن المسلمين من الاستيلاء على سورية وقوسة هو إلزام القسيسين القيصر باسيليه الأول المقدوني بأن يشغل الجيش ببناء كنيسة

القديس ميخائيل وكذلك ألزموا خلفه القيصر ليون بأن يشغل عسكر الاسطول بمثل ذلك فتيسر بذلك للمسلمين الاستيلاء على جزيرة اقريطش وأما خلافهم في عبادة الصور وما نشأ عنه من التنازع والفشل فحدث عنه ولا حرج. فثبت بذلك ان النصرانية قد زادت اليونان والرومان جهلا ووهنا فكانوا بذلك في أشد الحاجة الى ذلك الينبوع الذي فاض في أرض العرب وتفجر ماؤه على غير هافأحيا البلاد والعباد كما هو شأن الانهار والينابيع تفيض من مكان وتجيء ما تسير اليه وصح تمثيلنا حتى على الوجه الذي صرفه اليه الدكتور اسبرنجر محرر المقتطف الاغر. وهذا جواب سؤاله بالاختصار

لاحقة سجل جمعية ام القرى

يقول (السيد المراني) انه بعد تفرق الجمعية بنحو شهرين ورد الي من الصاحب المذكور كتاب يذكر فيه انه بعد مفارقته مكة المكرمة اجتمع بأمير جليل فاضل من أعاظم نبلاء الامة ورجال السياسة. فاستطلع رأي الامير في شأن النهضة الاسلامية وبعد ان دار بينهما حديث طويل تحقق من خلاله سمو فكر الامير وانتهاب غيرته ذكر له اطلاعه على سجل جمعية أم القرى واشياء من مذاكرتها ومقرراتها فأظهر الأمير سروره من الخبر وشديد شوقه للاطلاع على السجل الذي ذكره له فعندئذ وعدبإعارته نسخة من السجل ثم ارسلها اليه وبعد ايام تلاقيا فدارت بينهما المحاورة الآتية

قال الأمير: أشكر لك أيها الصاحب هذه الهدية العزيزة وبالذة ليلة أحييتها في مطالعة تلك المذاكرات النفيسة التي لم اتمالك ان اتركها تلك الليلة حتى أتيت على آخرها ثم في الايام التالية اعدت النظر فيها بالتدقيق.

قال الصاحب: يظهر من عبارة مولاي الأمير استحسانه كيفية تشكل الجمعية واستمراره من مجرى مذاكراتها.

قال الأمير: كيف لا أعجب بذلك ولطالما كنت اتمنى انعقاد جمعية يتضافر أعضاؤها على مثل هذا المقصد وتكون فيهم المزية التي ظهرت على رجال هذه الجمعية